



الهداية من الله وحده

(039) سورة الزمر

اللقاء الخامس من تفسير سورة الزمر - شرح الآيات 19-23

2022-02-26

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

من أراد السير في الطريق المستقيم فلا يُوقِّفه إلا الله وحده:

مع اللقاء الخامس من لقاءات سورة الزمر، ومع الآية التاسعة عشرة من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفَذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

[سورة الزمر]

قلنا: إن سورة الزمر موضوعها العام هو التوحيد، وهذه الآية تتصل بالموضوع العام للسورة وهو التوحيد، وبأنه لا يهدي إلا الله. رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له تعالى في آية أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)

[سورة الشورى]

بمعنى أنه أُرْسِلَ لِيُذِلَّ النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، لكنه لا يملك أن يُجِيرَهُمْ عَلَى الْهَدَايَةِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُخَيَّرٌ، وإذا أرادوا السَّيْرَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَلَا يُوقِفُهُمْ إِلَى الْهَدَايَةِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لذلك فِي آيَةٍ ثَلَاثَةَ قَالٍ لَهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

[سورة القصص]



الْمُخَيَّرَ بِسْتَطِيعَ أَنْ يَسْلُكَ أَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَرِيدُ
فالنبي صلى الله عليه وسلم يَتَّصُ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْقِذَ أَحَدًا مِنَ النَّارِ، إِذَا حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فَمَنْ اخْتَارَ طَرِيقَ النَّارِ فَيَسْجُدُ إِلَى النَّارِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُبْرِجَهُ
عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ، لِأَنَّهُ مُخَيَّرٌ، فَالْمُخَيَّرَ بِسْتَطِيعَ أَنْ يَسْلُكَ أَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَرِيدُ، هَذَا هُوَ التَّخْيِيرُ، أَنْ يَسْلُكَ هَذَا وَذَاكَ، فَقَالَ لَهُ: (أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيُّ
لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنَ النَّارِ إِذَا حَقَّتْ عَلَيْهِ، حَقَّتْ أَيُّ تَبَيَّنَتْ وَوَجِبَتْ، مِنْ حَقِّ يَحَقُّ إِذَا تَبَيَّنَتْ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي لَهَبٍ، وَأَتْبَاعِهِ،
وَعَشِيرَتِهِ مِمَّنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فَهَؤُلَاءِ اسْتَحَقُّوا مِنَ الدُّنْيَا النَّارَ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

[سورة المسد]

لأن الله عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ، فَعَلِمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَنْ يَهْتَدُوا بِعِلْمِهِ الْمُطْلَقِ، لَيْسَ جَبْرًا وَإِنَّمَا كَشَفَ، كَشَفَ أَنَّهُمْ لَنْ يَهْتَدُوا لِأَنَّهُ صَاحِبُ الْعِلْمِ الْمُطْلَقِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَيْتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۚ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۚ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (216)

[سورة البقرة]

فقال: (أَقَمْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) مَا قَالَ: حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ، الْفَاعِلُ هُوَ كَلِمَةُ وَهُوَ مُؤَنَّثٌ، فَالْمُتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ، حَقٌّ جَاءَتْ لِلْمُضَافِ إِلَيْهِ
وَهُوَ الْعَذَابُ، أَيُّ حَقٌّ الْعَذَابُ، لِأَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْعَذَابُ، فَجَاءَتْ مُذَكَّرَةً لِتُنَاسِبَ تَذْكَيرَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَجَاءَتْ كَلِمَةُ بَيْنَهُمَا لِتُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا قِرَاءَةٌ صَدْرًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَلِمَةُ أَيُّ قِرَاءَةٌ صَادِرَةٌ
وَأَرَادَهُ إلهِيَّةٌ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا، فَهَذَا حَقٌّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

{ مَنِّي كَمَنِّي رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَصَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْقَرَّاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ النَّارِ فِي النَّارِ يَفْعَنَ فِيهَا، وَجَعَلَ

بِحُجْرَتِهِ وَيُعَلِّمُهُ فَيَبْقَحَنَّ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَنِّي وَمَتَلِكُمْ، أَنَا آجِدُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَعْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا {
[البخاري]

الحشرات تُلقِي نفسها في النار تُهْلِكُ نفسها وهي تطن أنها تستضيء بالنار. قال **أنا آجِدُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ** الحُجْرَة هي موضع الإزار، **أنا آجِدُ بِحُجْرَتِكُمْ** أي رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يمنع هؤلاء المنحرفين من السقوط في النار لكنهم يسبرون في هذا الطريق ويهونون في نار جهنم، فلا يستطيع أن ينقذهم، رحمته تريد ألا يفعا في النار، كمثل القَرَّاشِ والدَّبابِ الذي يأتي ويقع في النار، وصاحب النار يحاول أن يبعد القَرَّاشِ والدَّبابِ لكنهن يقعن فيه، إصرار، وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم:

{ كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْتِي؟ قال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى {

[البخاري]

أي هو بعضاونه كأنه يقول: لا أريد الجنة، فلا أستطيع أن أنقذَه من النار، لأنه رفض الجنة بلسان جاله لا بمقاله، فيقول له: **(أَقَمْنِي حَقَّ عَلَيَّ كَلِمَةُ الْعَذَابِ)** أفأنت تُنقِذُ من في النار؟ استفهام إنكاري أي لا تستطيع أن تُنقِذَه إذا صدرت الإرادة الإلهية والقرار المُحكَم لأنه من أهل النار نتيجة ما قدَّم وما عمِل.

طاعة الله وقاية من عذابه:

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
'لِكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ قَوْقِهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ لَا يُخْلِِفُ اللَّهُ الْوَيْعَادَ (20)

[سورة الزمر]

لكن: حرف استدراك. ما معنى استدراك؟ استدراك كأنك تتحدث بشيء ثم تستدرك، تعود قليلاً إلى الوراء، لكن: هنا لماذا الاستدراك؟ للدلالة على البُعد بين الفريقين، أي فريق النار انتهى الحديث عنه **(أَقَمْنِي حَقَّ عَلَيَّ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأنت تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)**، انتهينا منه، **(لِكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)** وكأنهم في وادٍ آخر بعيد، ليسوا مع هذا الصنف فجاء بـ (لكن) الاستدراك.



تقوى الله أن يُطاع فلا يُعصى

(لِكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) طبعاً تقوى الله أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذَكَّر فلا يُنسى، وأن يُشكَّر فلا يُكفَّر. وأصل التقوى من الوقاية، أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يقابله شيئاً يقيه إياه، ألا ترون مثلاً العامل الذي يلحم الحديد مع بعضه، يمسك بيده واقياً شفافاً ويعمل، لماذا جعل هذه الوقاية؟ حتى لا تصيب شرر النار وجهه، فيُمسك الوقاية، هذه هي الوقاية، أن تجعل بينك وبين الشيء وقايةً.

فعداب الله يحتاج أن تُتَّقِيَه بطاعة الله عز وجل، أن تجعل بينك وبين العذاب وقايةً، هذا معنى التقوى، والتقوى أحياناً تُنسب إلى النار فيقال: اتَّقَى النار، أي جعل بينه وبينها وقاية، وتُنسب أحياناً إلى الله، فيقال: اتَّقَى الله تعالى لأن الله هو الذي يُعَذِّبُ جل جلاله.

(لِكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) وأشار هنا إلى التُّبُوِّيَّة، ليذكرهم بفضل الله عليهم، لأنه الإله الذي يستحق أن تُتَّقِيَه، الرَّبُّ الذي يُؤدِّدُ بما تحتاجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَبِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ □ وَعَدَّ اللَّهُ □ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ (20)

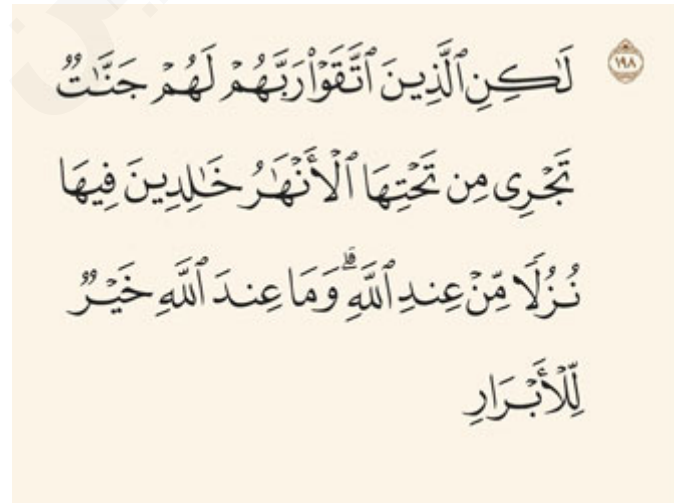
[سورة الزمر]

عُرفٌ جمع عُرفة، والغرفة تسمى عُرفة وتسمى العُلَّة، وهي شيء يُبنى فوق شيء، العُرْفَةُ.
(لَهُمْ عُرفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرفٌ) يوجد مقابل ما ورد بالحديث عن أهل النار كما لاحظنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ طُلُوءٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طُلُوءٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

[سورة الزمر]

هؤلاء الذين في النار، (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ طُلُوءٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طُلُوءٌ)، أحاطت بهم الطلُّ من كل جانب.



الحديث عن نعيم أهل الجنة في القرآن
هنا (عُرفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرفٌ) وقال: مَبِيَّةٌ، أي مؤسسية في الأرض ليست في الفضاء وإنما لها أساسات مَبِيَّةٌ، هؤلاء المتقون العُرف التي تحت لهم والعُرف التي فوق لهم، أهل النار (مِنْ فَوْقِهِمْ طُلُوءٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طُلُوءٌ) فلا يُفْلِتُونَ من النار، هنا يتنقل بين الغرف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَبِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ □ وَعَدَّ اللَّهُ □ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ (20)

[سورة الزمر]

العُرف السفلية تجري من تحتها الأنهار، وهذا من أبداع الصور التي يُكزِّرها القرآن الكريم في الحديث عن نعيم أهل الجنة، أي لوزار الإنسان القصور التي كانت في الأندلس، ورأى الأنهار تجري من تحت الأبنية لعلَّ ما هذا المعنى، ولو قرأ قوله تعالى، سليمان لَمَّا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَبِلَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ۖ وَكَشَفَتْ عَنْهَا رَأْسَ الْمَرْءِ مِنَ الْمَاءِ ۖ فَأَنَّهَا خَلَقَتْ لِرَبِّهَا
تَقْسِي وَأَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

[سورة النمل]

بلفيس لما دخلت طلّمت أنها تدخل في نهر، فكشفت عن ساقها لثلاث تبتل ثيابها، لكن في الحقيقة صرح مُمرّد من قوارير والماء تحته، فهذا من أبداع الصور. أحياناً تكون في مزرعة مثلاً، وصاحب المزرعة صاحب أذواق، وعنده مال فيجعل في الحديقة شيئاً من الزجاج الصافي، تحته ماء على مساحة ضيقة، فما بالك إذا كانت العُرف هذه كلها تجري الأنهار من تحتها؟! ولَمَّا قال من تحتها يوجد آيات أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
السَّائِفُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

[سورة التوبة]

لكن من تحتها يدل على أن السَّع في مكان آخر وجري النهر تحته، لَمَّا قال في آية أخرى: (تَجْرِي تَحْتِهَا) إذاً أيضاً يوجد نبع تحت الجنات.

اليقين أساس في ديننا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كِن الَّذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعَدَّ اللَّهُ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

[سورة الزمر]



لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

هنا (وَعَدَ) منصوب على المصدر مفعول مطلق، كأن تقول: كتب كتاباً، وَعَدَ وَعَدَّ، وَعَدَّ وَعَدَّ اللهُ، فهي مفعول مُطلق لفعل محذوف. (وَعَدَّ اللهُ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) هذا المصدر الميمي بمعنى الوعد، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ، هذا مصدر ميمي على وزن مفعال. فإذا وعد الله تعالى فلا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ. إذا كان هناك إنسان وَعَدَكَ بشيء تقول: أنا أظن على حسب معرفتي به 90% سَتُؤَقِّبِي، إذا قال: عندي، انتهى، اطمئن، إذا قال لك: فلان آخر قال، تقول: والله فلان يَعِد ولا يَفِي، يُخْلِفُ وَعْدَهُ، لا أظن أنه سيفي بوعده، إذا ثالث معروف بأنه لا يفي بالوعد تقول له: لن يُصِيبَكَ شيء لأنه يتكلم من دون أن يُتَقَدَّ، فحسب القائل، فإذا كان يقول لك: وَعَدَّ اللهُ، لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ، والله تعالى وعد المؤمنين بالجنة، فنحن عندنا الجنة يقين ليست طناً، نحن الجنة عندنا يقين وليست طناً، هؤلاء السَّارِدُونَ عن الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَطُنُّ إِلَّا نَطْنًا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ (32)

[سورة الجاثية]

المؤمنون موفنون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (60)

[سورة الروم]

الذي لا يوقن بتسخُّك، يلعب بمشاعرك، بعواطفك، بدينك، بمبادئك، بقيمك، تصيح خفيفاً بين يديه.
فاليقين أساس في ديننا.

أنواع اليقين:

عندنا علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

علم اليقين: أن تعلم يقيناً أن هذا الشيء سيحصل، يقين مئة بالمئة، لكن عين اليقين أن تراه بعينك. لكن حق اليقين أن تصيح معه، تُعائشه بجميع حواسك.
أي إذا رأيت دُخاناً من خلف الجدار، علم اليقين أن تقول: لا دُخان بلا نار، فأنا مُتَيِّقٌ أن هناك ناراً خلف الجدار، فلما خرجت ووجدت إلى خلف الجدار رأيت بعينك هذا عين اليقين، ثم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

[سورة التكاثر]

أما حق اليقين فقد قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

[سورة الحاقة]

أن تضع يدك في النار فتحترق، هذا حق اليقين. فنحن الآن عندما علم اليقين بالجنة والنار، ولا أبالغ إذا قلت: ينبغي أن يكون عندما ما يقارب من عين اليقين وكأننا نرى الشيء بأعيننا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6)

لأن الله عندما يُحَدِّثُنَا عن الجنة والنار وكأنه يُصَوِّرُ لنا المشهد، وكأننا نراه رأي العين:
بقي حق اليقين: أن ينعم الإنسان بالجنة، وأن يعيش في جناتها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

[سورة الحاقة]

فهنا (وَعَدَ اللَّهُ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ) يقين.

أدلة على وحدانية الله ووجوده وكمال خلقه:
ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)

[سورة الزمر]

(أَلَمْ تَرَ) هذه دعوة للنظر والتأمل، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هنا سيسوق ربنا جلّ جلاله عدة أدلة على وحدانيته وعلى وجوده وعلى كمال خلقه، عدة أدلة من خلال آية واحدة من آياته، لكن في داخل الآية عدة أدلة، انظروا إلى هذه الأدلة:



الرؤية تكون بالبصر وتكون بالبصيرة

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذا المشهد الذي أُلْفَاهُ، أمس كان ممطراً، أي الوضع الطبيعي، استيقظنا نظراً من النافذة وجدنا المطر يهطل، الحمد لله، لكن ربنا عز وجل يقول لك: (أَلَمْ تَرَ)، أي انظر بعين قلبك لا بعين بصرك فقط، بل بالبصيرة، الرؤية تكون بالبصر وتكون بالبصيرة، أنت تقول: رأيت المصحف ببصري، لكن تقول: رأيت الله أكبر من كل شيء، رأيت بقلبي، فهناك رؤية القلب ورؤية البصيرة. فـ (أَلَمْ تَرَ) ينبغي أن تكون الرؤيا بالعين وبالقلب معاً، فعندما تنظر وتجسد السماء تُمطر لا تألف هذا المشهد، لا تألفه وإنما تنظر في عظيم ضئع الله تعالى فيه، (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) أي بدءاً بهذه الشُّحَابِ الثَّقَالِ كَيْفَ يُوجِّهُهَا اللهُ، يسوقها إلى بلد مَيِّتٍ فَيُنزِلُ المطر، كيف درجات الحرارة، سرعة الرياح، المسافات بيننا وبين الغيوم، المسافات بين الغيوم، التصادم بين الغيوم، الشُّحَابِ، التبرق، الرعد، آيات كثيرة، أجملها المولى جل جلاله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً).

(فَسَلَكَهُ) هذه الآية الثانية، سَلَكَهُ: أدخله، أنت الآن عندما تنزل المطر يمكن ألا يسَلَكَهُ أي ألا يدخل في الأرض، أن ينساج على الصخور القلساء ويذهب ولا تنتفع به، لكن الآية الثانية (فَسَلَكَهُ) أي أدخله، سَلَكَهُ أي أدخله داخل الأرض، جعله سائلاً أي جعل له مدخلاً في الأرض وإلا لما كان هناك مياه جوفية ولا سطحية - أنهار - لَمَّا سَلَكَهُ سِوَاءَ بِمَقَرَّاتٍ تَرَاهَا بَعَيْنُكَ أَوْ بِمَقَرَّاتٍ لَا تَرَاهَا بَعَيْنُكَ، المياه الجوفية، هذه الآية الثانية.

ثم قال: (يَنَابِيعَ) هذه الآية الثالثة، جمع ينبوع وهو ما يتفجر من داخل الأرض، لو أنه سَلَكَهُ، ثم غار في الأرض، ولم يستقر في حَزَانَاتٍ وَمَسْتَوْدَعَاتٍ مُحَكَّمَةٍ لَمَا انفجر ينابيع في الوقت المناسب أو في الآبار عندما تحفر البئر، (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ) هذه الآية الثالثة (يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ).

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا) هذه الآية الرابعة (يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا) فالماء نزل لكن من قال لك أن يَبْتُتَ الزرع؟ يمكن أن يُخَرَّنَ وتنتفع به مثلاً بالشراب لكن لا تنتفع به بالزَّرع، يُخْرِجُ جل جلاله زَرْعًا هذه الآية الرابعة.

الآية الخامسة قال: (مُخْتَلِفًا أَلْوَانًا)، الأرض وإحده، والماء واحد، والألوان مختلفة، ألوان الزَّهْر مختلفة، ألوان الثمار مختلفة، ألوان الأوراق مختلفة، تنظر حتى اللون الأخضر، هناك أخضر بالآلاف الدَّرَجَات في النبات، آلاف مُؤَلَّفَة من الدَّرَجَات تنظر فتري من الفاتح جداً إلى الغامق، هذا الأخضر وحده فما بالك بالأزهار مثل الأصفر والإزهرى والأحمر؟! (مُخْتَلِفًا أَلْوَانًا) ثم الثمار تجد منها عدة ألوان، مثلاً ثمرة التفاح بألوانٍ حمراء وصفراء وخضراء، وتجد البرتقال، وتجد غيره من الفواكه، (زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانًا) رغم أن الماء واحد والأرض واحدة.

قال: (ثُمَّ يَهْبِجُ) يهيج من هاج يُقال غالباً لعالم الحيوان، هاج النور مثلاً، هو يُقال حتى للإنسان إذا هاج من حركته الشديدة، يهوج أو يهيج، بالعامية يهوج، هاج يهيج، فيهيج أي ينمو ويرتفع، (فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) بعد حين يبدأ فصل الخريف، يعطي الثمار الآن فتراه مُصَفَّرًا ذابلاً.

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) الآية السابعة والأخيرة، (يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أي مَحْطُومًا، حُطَامًا على وزن فُعَال، بمعنى مفعول محطوم، أي يَحْطُمُ بعضه بعضاً، مُكْسَّر في الأرض، انتهى الموسم إلى الموسم الجديد.

هذه آيات دالة على عظمة الله، وعلى وحدانيته، وعلى كماله.

كل شيء في الأرض له منفعتان ! مادية محدودة وأخرى غير محدودة:



الألباب هم أولو العقول الراجحة

هذه الآيات نفسها قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا) يتذكر (أولوي الألباب) تحدثنا عن أولي الألباب في اللقاء الماضي، الألباب صاحب اللب، يقول: أولو العقول الراجحة أي الذي ينتفع، أولو اللب، اللب هو الإنسان الذي ينتفع مما يرى، لا أقول أن ينتفع بالثَّغ المادي لأن كل الناس ينتفعون بالثَّغ المادي، المعنون ينتفع بالثَّغ المادي، والمخلوقات الأخرى تنتفع بالثَّغ المادي، لكن أولو الألباب الذين ينتقلون من المَنَقَعَة المادية إلى تَذَكُّر عظمة الله عز وجل من خلال المَنَقَعَة المادية، لأن كل شيء يُبَصِّرُه في الأرض له منفعتان: مادية محدودة، وأخرى غير محدودة.

أنت اليوم إذا أمسكت تفاحة بيديك الفائدة المادية المحدودة أن تتمتع بطعمها الحلو، وهذا أيضاً آية من آيات الله، أنت تمسك التفاح، أقول لك: ما طعم التفاح؟ تقول لي: حلو، خذ الخوخ تقول لي: حلو، والدُّرَّاق تقول لي: حلو، صف لي إياه بغير كلمة حلو، التفاح تفاح، والخواخ خوخ، والدراق دراق، هل لديك وصف آخر؟ لا، فقط حلو، هذا الحلو مثل هذا الحلو؟ لا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَاتٌ وَجَنَاطٌ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَدْيٌّ صِنْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُعْمَصْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

[سورة الرعد]

هذه لم تأت هنا، هذه آية، الأكل مختلف، صِفُّهُ؟ والله لا أستطيع أن أصفه، ذقه لتعرف، لا يوجد وصف آخر، طعم تفاح فقط، المشترك أنه حلو، تلك حامض بعض الفواكه الأخرى، لكن لا أستطيع أن أصف لك غير ذلك، هذه آية، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

حال الناس مع الوحي:

هذه الآيات التي يُذَكِّرنا بها الله تعالى من الكون تشبه تماماً حال الناس مع الوحي، سيأتي الآن حال الناس مع الوحي، كيف حال الناس مع الوحي؟ النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين ذكر:

{ مَثَلٌ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْعَيْتِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا تَفِيَّهُ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأَبْتَتِ الْكَلَاءَ وَالْغُسْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءُ، فَتَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَسَرُبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً،

كَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَتَفَعَّاهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ()
[متفق عليه]

النبى صلى الله عليه وسلم جاء معه هدي من الله وعلم، كَمَثَلِ الْعَبِيدِ، المطر. غيث نزل من السماء، فكان الناس فيه على طوائف ثلاثة، الآن سأذكر الحديث بالمعنى، حتى أَفْضَلَ الموضوع، فكانوا طوائف ثلاثة؛ النبي صلى الله عليه وسلم يذكر هذه الطائفة الأولى والثانية والثالثة.
الطائفة الأولى: قِيلَتِ الْمَاءُ وَأُنْبِتَتِ الْكَلَّا وَالزَّرْعُ، أَي الْأَرْضُ تَلَقَّتْ مَاءَ السَّمَاءِ انْتَقَعَتْ بِهِ وَأُنْبِتَتْ بِهِ الْكَلَّا.
الطائفة الثانية: وصفها النبي صلى الله عليه وسلم قَال: أَجَابِ، جَمَعَ جَدْبَاءَ، أَرْضٌ جَدْبَاءٌ، هَذِهِ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ لَكِنْ لَمْ تُنْبِتِ الْكَلَّا، فَانْتَفَعَ بِهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَسَقَوْا وَزَرَعُوا. هَذَا إِنْسَانٌ صَاحِبٌ عِلْمٍ قَبِيلَ الْعِلْمِ لَكِنْ لَا يُوْجِدُ عِنْدَهُ فَهْمَهُ، مَا تَعَلَّمَ فَهُوَ مَا انْتَفَعَ بِالْوَحْيِ مَنْفَعَةٌ كَامِلَةٌ، انْتَفَعَ مَنْفَعَةً جُزْئِيَّةً لَكِنْ لَمَّا أَمْسَكَهُ نَقَلَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَكَانَ مَصْدَرُ خَيْرٍ لِلنَّاسِ وَلَيْسَ مَصْدَرُ شَرٍّ، انْتَفَعَ قَوْمٌ آخَرُونَ فَسَقَوْا وَزَرَعُوا كَمَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
الطائفة الثالثة: يقول صلى الله عليه وسلم: قَبِيحَانِ لَا أَمْسِكُكَ الْمَاءُ وَلَا أُنْبِتُ الْعُشْبَ. هَذَا مَا انْتَفَعَ بِالْمَاءِ، الْمَاءُ نَزَلَ وَذَهَبَ، لَا انْتَفَعَ بِهِ وَلَا نَفَعَ بِهِ غَيْرُهُ، فَيُصَفُّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ جَاءَهُ الْهُدَى فَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا، مَا انْتَفَعَ بِهِ أَبَدًا.
هذا المشهد الذي وصفه الله تعالى في القرآن الكريم عن الذين قَبِلُوا الْهُدَى، يُشْبِهُونَ الْأَرْضَ بِهَذَا الشَّكْلِ، لِذَلِكَ تَتَنَاغَمُ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ الْآيَاتِ الْآخَرَى بِهَذَا الْإِطَارِ وَتَتَنَاغَمُ مَعَهَا بَعْدَهَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّي □ قَوْلٌ لِلْقَاسِمَةِ فُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

[سورة الزمر]

نزل الغيث قَتْلَقَهُ، بِشِبْهِ حَالِ الْأَرْضِ تَمَامًا، شَرَحَ فِي الْأَصْلِ يَقُولُونَ فِي عِلْمِ التَّشْرِيحِ لِأَنَّهُ يَكُونُ شَرَحَ اللَّحْمِ وَرَأَى مَا تَحْتَهُ، يُشَرِّحُ، فَالشَّرْحُ هُوَ شَقُّ اللَّحْمِ فِي الْأَصْلِ. (شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبُولِ الْحَقِّ وَكَانَتْ فَتَحَ صَدْرِهِ لِلْحَقِّ.



الإسلام خير مما سواه

(أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّي) كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ: هَذَا الَّذِي شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ هَلْ هُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْقَاسِمَةِ قُلُوبِهِمُ الَّتِي سَيَأْتِي بَعْدَ حِينَ ذِكْرِهَا؟ هَذَا فِي النَّبِيَّةِ، أَوْ مَا سَبَقَ ذَكَرَهُ مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ظَلَّلَ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظَلَّلَ، وَهَذَا يُسَمُّونَهُ: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ، الْأَوَّلُ اسْتِفْهَامٌ انْكَارِيٌّ الَّذِي وَرَدَ مَعْنَى قِيلَ قَلِيلٌ، قَال: أَقَانْتُ تُنْفِذُ مَنْ فِي النَّارِ؟ أَي لَنْ تُنْفِذَ مَنْ فِي النَّارِ. هَذَا تَقْرِيرِيٌّ، (أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّي) هَذَا الَّذِي شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ يُقَرَّرُ أَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا سِوَاهُ، تَقْرِيرٌ.

(أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) الصدر في داخله القلب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ تَسْمَعُونَ بِهَا □ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ (46)

[سورة الحج]

فَلَمَّا يَشْرَحُ اللَّهُ الصَّدْرَ لِلْإِسْلَامِ أَي يَدْخُلُ النُّورُ إِلَى الْقَلْبِ، نُورَ الْحَقِّ، (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّي) كَتَبَ عَنِ الْهُدَى بِالنُّورِ، لِأَنَّ النُّورَ وَاضِحٌ، النُّورُ تَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقِيقَتِهَا بَيْنَمَا يُكْتَبُ عَنِ الضَّلَالِ بِالطَّلَمَاتِ، طَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ □ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ فُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ (22)

[سورة الزمر]

الويل هو التُّبور والهلاك والشِّقاء، وقيل: إن في جهنم وإِد يقال له: الويل. لكن أصل الويل هو التُّبور والشِّقاء والهلاك.
(قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ فُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ □ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ) انظر لمَّا قال على نورٍ أولئك في ضلالٍ، المقارنة.
قلت لكم سابقاً: دائماً الهدى (على)، النور (على)، التقوى (على):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى سَفَا جُرْفٍ هَارٍ قَائِمًا بِهِ فِي تَارٍ جَهَنَّمَ □ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

[سورة التوبة]

لأن (على) تُفيد الاستعلاء، فهذا الذي يكون في الحق والخير يكون مُتَمَكِّنًا منه، مُسْتَعْلِيًا به، لا أقول: مُتَكَبِّرًا، لا، المؤمن لا يتكبر، لكن هو بوضع طبيعي عندما يكون على هدى فهو أصبح فوق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَّيْتُكَ وَرَافَعْتُكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرْتُكَ مِنَ الذِّمَنِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ □ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)

[سورة آل عمران]



التقييم هو تقييم الله لا تقييم البشر

الوضع الطبيعي أن المُهندي هو فوق، ولو وجدت أهل الضلال بالدنيا قد علّوا وأصبح لهم شأن، واستقبلهم الإعلام، وُسِطت لهم البُسط الحمراء، لا تلتفت، هذه دنيا، لكن عند الله من الذين فوق؟ أهل الهدى. فأنت فوق بتقييم الله لا بتقييم البشر، وتقييم المُنصفين من البشر.

المنصف الحقيقي الإنسان الصحيح السوي السليم يرفع أهل الهدى ويضع أهل الضلال، البعيد المُنجرف هذا لا يُقْتَمَلُ، وليسيت بحاجة إلى تقييمه فلا تلتفت له، فلَمَّا يقول: (عَلَى نُورٍ) ثم يقول: (أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتٍ) لأنهم غارقون في ضلالهم، فالضلال لا يُتَمَكَّن منه ولا يعلو الإنسان به، وإنما يغيب في داخله، وبأكله الضلال أكلاً، (أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ) وبالمقابل أولئك على هدىً وهنا (عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ).

(قَوْلُ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ) أي ضلال واضح، بين، لا يخفى، لا يستطيع الإنسان أن يُنكره، لكن هم يُعدهم عن الله طنوا أنفسهم على خير وهم غير ذلك.

من عَقَلَ عن الله أصبح قلبه كالصخر الأَصَمَّ:

(قَوْلُ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وقالوا هنا (من) بمعنى عن، أي قسا قلبه عن ذكر الله، فالقلب كيف يقسو؟ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَتَّسِقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَاوِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

[سورة البقرة]

إذاً الحجارة خبزٌ من قلوبكم، لأن الحجارة مهما كانت قاسية لكنها تتحرك عند ذكر الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

[سورة الحشر]

أما الإنسان إذا عَقَلَ عن الله أصبح قلبه كالصخر الأَصَمَّ، ما معنى الأَصَمَّ؟ أي لا يقبل شيئاً. أصم لا يدخل شيء في داخله، هناك صخور ليست صمماً، يدخل في داخلها الماء لها بعض المسالك، أما الصخر الأَصَمَّ فهذا حتى لو جاء الماء عليه فإنه يسيل ولا ينتفع الصخر منه شيئاً، هذا الصنف الثاني من الوحي، الصنف الأول: شرح الله صدره للإسلام، هذا يشبه عندما يجعله خطأً لم يعد هناك شيء لا ينتفع.

القرآن الكريم أحسن الحديث:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ بَشَرَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلُ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ (22) اللَّهُ تَرَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْسَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

[سورة الزمر]

كيف بالمقابل قلنا قبل قليل: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هنا: (تَرَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)، تَرَّلَ غالباً تأتي مع القرآن بإفادة التثالي في النزول، غالباً كاستخدام قرآني، غالباً تَرَّلناه أي تَرَّلَ مُتَّحَمًا مُعَرَّفًا، أما قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

[سورة القدر]

قيل: هذا النزول الواحد من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَرَلَّ يَه الثُّرُوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ 194

[سورة الشعراء]

يوجد (نزول) ويوجد (تترُّل)، فهنا (اللَّهُ تَرَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)، الحديث غالباً يطلق على الأخبار في اللغة، أي الأمر والنهي لا يقال له حديث. إذا قلت لك: ادرس، هذا ليس حديثاً، لكن لو قلت لك: سأروي لك قصة من القصص، هذا حديث.



القرآن الكريم أحسن الحديث

لو قلت لك: آيات كونية، هذا حديث، أما الأمر والنهي فلا يسمى حديثاً، الله تعالى يسمي القرآن في أكثر من آية حديثاً، لأن ما تنظر فيه من أحاديث سواءً القصص السابقة تعتبر بها، الآيات الكونية تفتك إلى الله، فهو أحسن الحديث، أي حديث تتحدثه هناك أحسن منه، لكنه ليس أحسن من حديث الله تعالى، الذي يُحدثك به عن الأمم السابقة، عما سيأتي من الجنة والنار، عن الآيات الكونية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ تَرَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي تَفْسَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْسَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ
اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (23)

(اللَّهُ تَرَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا) هذا أحسن الحديث هو الكتاب.

القرآن كله متشابه لأنه من عند الله:

(كِتَابًا مُتَشَابِهًا) ما معنى متشابهاً؟ إنسان يكتب روايات، عنده عشر روايات، ومشهور بكتابة الروايات، تسأل مئة إنسان: أي رواية أجمل من روايات هذا الكاتب؟ يقول لك: الرواية التي اسمها كذا.

تقريباً يُجمع الناس على أجمل رواية له، بعض الناس يختلفون حسب علاقته هو بالرواية، الآن داخل الرواية تقول له: أي فصلٍ أجمل: يقول لك: الفصل الثاني جميل جداً مؤثر جداً أبدع به الكاتب، الباقي أقل.



التشابه في القرآن الكريم

ليس الحديث متشابهاً بل متفاوتاً، فهناك عند البشر، أو حتى الكاتب نفسه يكتب كتاباً وهو في الثلاثين من عمره، عندما يقرؤه وهو في السبعين يقول لك: هذا كلام مبتدئ، أنا لا أحب أن أقرأه، أجد نفسي كنت جداً بسيطاً لما كتبت، الآن تغير لأن خيرة الإنسان حادثة، فمن حين إلى حين يُبدّل ويُعَيَّر بأدواته وكتابات، وأسلوبه وخطابه: حتى المتكلم يقول لك: أنا حضرت كلاماً لي قبل عشر سنوات لا أجد فيه نفسي الآن، أجد به بسيطاً جداً بالنسبة لما أتكلم به الآن. فلا تجد تشابهاً في الحديث.

يقولون إذا كان الوجه جميلاً: وجه متشابه أو مُقسَّم، مُجَزَّأ. كيف وجه مُقسَّم؟ العرب تقولها، أي كل قسم منه يشبه القسم الآخر في جماله، أما أحياناً تقول: والله هذا الوجه سبحان الخالق! العينان جميلتان، لكن الفم غير جميل مثلاً، أما الوجه المُقسَّم فيه كل جزء يشبه الآخر في جماله، فعندما تقرأ في كتاب الله تعالى لا تجد من تفاوت، أي لا تقول: هذه السورة أجمل من تلك السورة، نعم قد تقول: أنا أتأثر جداً بهذه السورة لتجربة معها، قرأتها في العُمرة.

الثاني يقول: والله إن سورة البقرة مُحَبَّبة إلى قلبي، أقرأها كل يوم، هذه طبائع البشر، لكن كبلغة بلاغة المصموم، نوع الخطاب، الكلام، الأسلوب متشابه، أينما تقرأ تجد البراعة نفسها، واللغة العظيمة نفسها، والإعجاز نفسه.

وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة كما قال الوليد بن المغيرة وهو مُشرك لكنه قال كلمة حق، والقرآن الكريم لا يَخْلُقُ على كثرة الرَّد لا يُمل منه، أي كتاب تقرأه مرة مرتين ثلاث تقول: كفى، إلا كتاب الله فإنك كلما قرأته زادك، لأنه كريم، كلما أعطيتَه أعطاك أكثر مما أعطيتَه، تعطيه نصف ساعة من وقتك فيعطيك خيراً كثيراً أكثر من وقتك الذي أعطيتَه، كريم، قرآن كريم.

(اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) هذا معني المتشابه، والخلق أيضاً، خلُق الرحمن متشابه، ما ترى في خلُق الرحمن من تفاوت، لا تقول: هذا الإنسان من طراز 1970، الآن يوجد أحدث، هو نفسه الإنسان لم يتغير. الكليّة بمكانها، والكبد بمكانها، والوظائف نفسها، لا يتغير الطراز، ولا تقول: هذا النبات كان شبنماً وأصبح شبنماً، ولا هذا الحيوان، الله تعالى خلق خلقاً كاملاً، الحجم ليس له علاقة، لا تقول: والله الإعجاز في خلُق الحوت يا أخي أضخم بكثير من البعوضة، لا، يوجد إعجاز بخلق الحوت، وهناك إعجاز يخلُق البعوضة لا تقل عن خلُق الحوت، وأحياناً الدقة والعظمة في الصَّغَر وليست في الكِبَر، لكن هنا في الصَّغَر وفي الكِبَر، تنظر إلى الحوت ترى فيه العظمة، ترى البعوضة تقول: هذه عظيمة، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وفي كلامه لا ترى من تفاوت، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)

[سورة النساء]

كان يقول لك: هذه السورة حلوة، تلك لا بأس، لو كان من عند غير الله، لأنه من عند الله فكله متشابه.

القرآن الكريم يُكَمِّلُ بعضه البعض:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي تَفَسَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

[سورة الزمر]

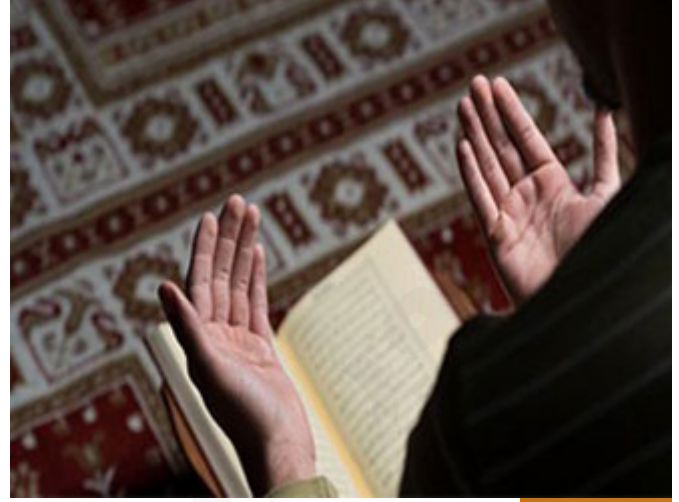
(مَتَابِي) قالوا: إن الآية تتثنى عن أختها فُتَفَسَّرُها، فتجد القرآن يُكَمِّلُ بعضه البعض، والمثنائي أحياناً أن فيه تأكيداً وتكراراً للأوامر والنواهي وكأنها اثنان اثنان، مثنى جمع، المثنائي جمع مثنى، وقيل: جمع مثنى وكلاهما صحيح، فالمثنائي تجد الأوامر مُكْرَّرَةٌ لكن بصيغ مختلفة في أماكن مختلفة تؤدي معانٍ مختلفة، فتجد الأمر في التقوى في كتاب الله في عشرات الآيات، ولكن كل مرة بأسلوب وبسياق مختلف حتى في النهاية يحصل لك التقوى.

علاقة اقشعرار الجلد بتأثر القلب:

(تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الجلد عندما تَفْشَعِرُ يَتَجَمَّعُ على بعضه أثناء البرد أو الصدمة أو الخوف أو المشهد المؤثر فَيَفْشَعِرُ الجلد، واقشعرار الجلد دلالة على تأثر القلب، فلا يقشعر الجلد إلا إذا تأثر القلب، فجاء هنا بالأثر.

(تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) هنا (منه) بمعنى لأجله، أي تَفْشَعِرُ منه جلود الذين يخشون ربهم، (ثُمَّ يَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) فالمؤمن إذا سَمِعَ ذكر الله، سَمِعَ القرآن مَثَلَهُ كمثل الأرض التي تتلقى الوحي والغيث وتتفتح به وتنبث به الخير والكلأ.

تعلق مشيئة الله في الهدى برغبة الإنسان:



الهدى هو هدى الله

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ □ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) هذا المعنى تحدثنا عنه كثيراً لكن باختصار الهدى هو هدى الله، ولا هدى إلا هدى الله، وأي إنسان يرسم لك طريقاً يُؤَهِّمُكَ أنه طريق هدى وليس مُسْتَمَدًّا من وحي السماء فهو طريق ضلال، أفصد بالهدى الهدى الإيماني، لَمَّا يرسم لك طريقاً للنجاح في التجارة، هذا أمر آخر، له أسبابه ومعطياته، ونحن - المسلمون - نضيف له المعطيات الإيمانية من التوكل وحسن المعاملة وغير ذلك، لكن هو يرسم لك وفق معطياته، لكن أي إنسان يرسم لك طريق الهدى الإيماني يقول لك: هذا يُتَجَنَّبُكَ من عذاب الله، إذا لم يُسْتَمَدَّ من كتاب الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِي نَزَّلَ فِيكُمْ قُلْ إِنَّ الْفُضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ □ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)

[سورة آل عمران]

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) من يشاء من العباد، والمعنى الأرجح المناسب دائماً للسياق يهدي به من يشاء الله تعالى.
لكن قلنا دائماً: مشيئة الله في الهدى تأتي بناءً على رغبتك، فالذي يريد الهداية يشاء الله له الهداية، والذي يريد الضلال يشاء الله له الضلال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ □ وَبُخْوَفُوتِكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)

[سورة الزمر]

فإذا أضلَّ الله عبداً ضلالاً جزائياً مَبْنِيًّا على ضلالٍ اختياريٍّ سابق، فلن تجد له من يهديه، لذلك قال تعالى لنبيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ □ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

[سورة القصص]

نور الدين الاسلامي